المعرفة
AL - MARIFA

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد [illegible] - السنة [illegible] - جمادى الأولى [illegible] هـ - نيسان [illegible] م

رئيس مجلس الإدارة

الدكتور رياض عصمت

وزير الثقافة

رئيس التحرير

د. علي القيم

معاون وزير الثقافة

أمين التحرير

[illegible]

الهيئة الاستشارية

د. طيب تيزيني	أ. وليد إخلاصي
د. حسام الخطيب	د. بدر الدين عرودكي
أ. شوقي بغدادي	أ. محمد قجة

الإشراف الفني والطباعي

أنس الحسن

التنضيد والإخراج

أحمد إسماعيل

التدقيق اللغوي

سمر الزركلي

التنفيذ

ريما محمود - ابتسام عيسى

[illegible]

www.moc.gov.sy

المواد المنشورة في المجلة تعبر عن رأي أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

مطابع وزارة الثقافة

سعر النسخة ٥٠ ل.س أو ما يعادلها

تضاف إليها أجرة البريد خارج القطر

في هذا العدد

كلمة الوزارة

شنغهاي تعانق العالم

حنا مينه: أديب الكفاح والفرح والبحر

رئيس التحرير

لغة أوائل الشعر العربي.. ١٣
د. محمد ياسر شرف

نساء ورسائل في حياة طه حسين ٢٥
د. عمر الدقاق

ابن الرومي شاعر الصورة المجسَّمة ٤٣
جميل حسن

أضواء الشعر السوداء.. ٥٠
عبد القادر حمّود

نمط من الشعر في زمن الكبار ٥٦
د. محمد رضوان الدّاية

خصوصيات الهندسة المعمارية لمسرح بصرى الأثري ٦٧
د. خليل المقداد

العمارة في تدمر في عصر معبد بل......................... ٧٧
ترجمة: موسى ديب الخوري

هل تتغير قوانين الطبيعة مع مرور الزمن ٩٣
ترجمة: حسام الدين خضور

ريجيس دوبريه: أحد أكثر الفلاسفة إثارة للجدل ١٠٢
إبراهيم سلوم

مستقبل المجلّات الثقافية في العصر الإلكتروني......... ١١٣
عبد الباقي يوسف

اللغة العربية وتكنولوجيا المعلومات........................ ١٢٥
هبة الله الغلاييني

عمر بن أبي ربيعة واللورد بايرون ١٣٣
إبراهيم محمود الصغير

الإبداع

شعر

حكايات من مونتريال ١٤٣
سليمان العيسى

الريح والزيتون.. ١٤٥
محمود حامد

قصة

الدار ١٤٨
نصر الدين البحرة

لم أكن أفهم.. ١٥١
غسان كامل ونوس

آفاق المعرفة

من الملامح الفكرية في أدب توفيق الحكيم ١٥٥
محمود محمد أسد

الرومانسية في بوتقة الحداثة ١٦٧
د. عبد الهادي صالحة

اللغة.. الكتاب ١٨٠
عباس حيروقة

بانوراما /٢٠١٢/ في عالم متعدد الأقطاب ١٨٩
د. قحطان السيوفي

هانز كريستيان أندرسون: الأديب الفنان ١٩٤
ترجمة: رافع شاهين

آينشتاين: من أكاذيب القرن العشرين..................... ١٩٨
د. ناصر محي الدين ملوحي

دفاعاً عن تاريخ الفكر...................................... ٢٠٤
وفيق كريشات

فلسفة التصوّف عند ابن خلدون ٢١١
عيد الدرويش

حوار العدد

د. مروان مسلماني: أبرز مصوري الآثار................... ٢١٧
عادل أبو شنب

متابعات

صفحات من النشاط الثقافي.................................. ٢٢١
إعداد: أحمد الحسين

كتاب الشهر

في ذكرى الدكتور فاخر عاقل ٢٣١
د. صالحة سنقر

آخر الكلام

المعرفة والتطور ٢٣٧
رئيس التحرير

لغة أوائل الشعر العربي

د. محمد ياسر شرف ❀

ما تزال جغرافيـــة اللغة العربية التي جاءت بها منقولات الشعر العربي الذي نُسب إلى الفترة القريبة من ظهور الإسلام، والتي كانت في مجملها صوتيـــة خلا قليلاً جدّاً من كتابات قصيرة، لغزاً راهناً لم يستطع عديد من الباحثين المختصين أن يهتدوا إلى تفكيكه، سواء في دراسات المستشرقين الذين كانوا أول من تناول آثار مصنّفات

المسلمـــين المبكّرين بالدراســـة، أو المختصّين العرب الذين أقبلوا على هذا النوع من الدراسات المقارنة؛ وما يزال المعنيّـــون بانتظار العثور على لُقى وبقايا من وثائق تلك الفترات الزمنية المهمّة في ترتيب مراحل تواريخ الأفكار.

فقد ذهـــب «تيودور نولدكيه» إلى دعم الرأي القائل بأنّ الفروق بين اللهجات في الحجاز ونجد ومناطـــق البادية المتاخمة للفـــرات لم تكن كبيرة، وأنّ اللهجـــة الفصيحة لا بدّ أن تكون قد شملت تلك اللهجات جميعها؛ وذلك انطلاقاً من معرفة نولدكيه عدداً من اللغات، منها: العربية والآرمية والعبرية والصابئية والحبشية وغيرها، والمقاربات التي أجراها بين ما اشتملت عليه من ألفاظ.[1]

أمـــا «إغناطيوس غويدي» الـــذي أتقن اللغة العربية (الفصحى وأشهر مصادرها البائدة التي عدّ منهـــا: (الحميرية والسبئية والمعينية) إضافة إلى لغـــات سامية أخرى كالحبشيـــة والسريانية والعبرية، وعمل في اللهجات المقارنة، ونشر كتابي «الاستـــدراك على سيبويه» للزبيـــدي و«الأفعال وتصاريفهـــا» لابن القوطية؛ فقـــد ذهب إلى أنّ اللغة العربية الفصحى هي مزيج من لهجات قد تكلّم بها أهل نجد والمناطق المجاورة لها، ولم تكن لهجة معيّنة لقبيلة معينة.[2]

ورأى «كارلو نلّينو» العـــارف بتاريخ الإسلام والمتتبّع تاريخ اليمن القديم ومخطوطاته ولهجاته أنّ العربية الفصحى تولّدت من إحدى اللهجات النجديـــة، وتهذّبت في مملكة كنـــدة وفي أيامها، فأصبحت اللغة الأدبية السائدة. وعزا سبب ذلك إلى أن ملوك هـــذه المملكة أغدقوا على الشعراء

❀ أديب وناقد سوري.

مكافآت مجزية وشجّعوهم فكان لهذا وقع في نفوسهم، وساعد في توسيع رقعة هذه المملكة التي ضمّت أكثر قبائل معد، وكان لها فضل توحيد تلك القبائل وجمع شتاتها. فشاعت هذه اللهجة -حسب رأيه الاستنتاجي- في منتصف القرن السادس من التاريخ الميلادي، وانتشرت خارج نجد وعمّت معظم أنحاء الجزيرة، وخاصةً القسم الجنوبي من الحجاز الذي فيه يثرب ومكة والطائف، مع بقاء اللهجات العاميّة في منطق الناس المعتاد، كما كان للعواصم المشهورة ولملوك الحيرة وغسان شأن لا ينكر في هذا الانتشار السريع المعجب.(٣)

والباحث اللغوي «جوهان فولرز» الذي نشر بالعربية «ديوان المتلمّس» جرير بن عبد العزّى (خال طرفة بن العبد، أحد أصحاب القصائد المعلّقات) مع ترجمة بالألمانية، كتب عن «العربية العاميّة عند قدماء العرب» بصورة مقارنة و«اللهجة العاميّة في مصر». وحقّق معلقة «الحارث بن حلّزة» اليشكري بشرح الزوزني، بحسب مخطوطات باريس، مع قصيدتين لأبي العلاء المعري بحسب مخطوط بطرسبورغ، مع ترجمة إلى اللاتينية وشرح. وقد وضع تصنيفاً بعنوان «مبادئ النحو العربي» على هيئة جداول، وذهب إلى أنّ العربية الفصحى هي لهجة أعراب منطقتي نجد واليمامة، غير أنّ الشعراء أدخلوا عليها تغييرات متعدّدة على نحو ما وصل في نصوص الشعر القريبة من الفترة الإسلامية.(٤)

والباحث السويدي «كارلو لاندنبرغ» أمضى في البلاد العربية سنوات طويلة يدرس لغات الأمثال والأقوال الشائعة فيها، وحقق «ديوان أبي محجن الثقفي» و«ديوان زهير بن أبي سلمى» وكتاب «نشوة الارتياح في بيان حقيقة الميسر والقِداح» للزبيدي، ونشر أبحاثاً عن اللهجات العامية والنقد الأدبي.

وذهب إلى أنّ الشعراء هم الذين وضعوا قواعد هذه اللهجة، وعلى قواعدهم سار المتأخرون، ومن نصوص أشعارهم استُخرجت القواعد، ومن قصائدهم تلك استنبط العلماء أصول النحو. إلا أنّ «كارل بروكلمان» ذهب إلى أنّ لغة الشعر قبل الإسلام لا يمكن أن يكون الرواة والأدباء قد اخترعوها، على أساس كثرة من اللغة الدارجة، حتى إنّ هذه اللغة لم تكد تكون لغة جارية في الاستعمال العام، بل كانت لغة فنّية قائمة فوق اللهجات، وإن غذّتها لهجات عربية كثيرة ومتنوّعة.(٥)

ويُعدّ «ريجيس بلاشير» أحد الباحثين الذين أيّدوا الرأي القائل بوجود لغة عالية عند عرب ما قبل الإسلام، وذهب إلى تقرير: «إنّ وجود لهجات ولغة عليا ليس فيه شيء مخالف للعادة، كما إنّ نموّ لهجة شعرية ليس فيه أيضاً شيء خارق».(٦)

ويتلخّص تصوّر بلاشير للمسألة في أنّ اللغة المذكورة لهجة شعرية تنطبق على اللهجات المحليّة، بل هي امتداد لها، و«هي في الجملة موضوعة للأغراض النبيلة والتعبير الفنّي عن بعض أنواع التفكير»، لها خصائص اللهجات في

وسط الجزيـرة وشرقيّها. ولم تكـن هذه اللهجة العاليـة مقصورة الاستعمـال على أهل الجزيرة وحسب، بـل كانت لغة الشعـر أيضاً عند عرب العـراق وعرب بـلاد الشام. ولهـذا كان الشعر مفهوماً عنـد «الجاهليين» جميعـاً أينما كانوا، سواء في جزيرة العرب أو العراق وبلاد الشام.

وكانـت الفـوارق بين هـذه اللهجـة وبقية اللهجـات تختلف تبعـاً للمجموعـات اللغوية؛ فالفارق ضئيل بينها وبين لهجات أواسط جزيرة العرب وشرقيّها، ولها خصائص الأقسام الشرقية والوسطـى من جزيرة العرب. وكان الشاعر ينزع دومـاً إلى الابتعاد عن مؤثـرات لهجته القبلية، والارتفـاع عنها إلى لغـة الشعـر المتعارفة بين «الجاهليين» آنذاك، لكونها اللغة الرفيعة في نظر أهل الصفوة المجتمعية، وكانت تدلّ على تهذيب الشاعر وسموّ مداركه وسلوكه وثقافته.[٧]

ويـرى بلاشير أن علماء اللغـة والنحو حين أخذوا بضبـط قواعد اللغة غربلـوا اللهجات، وتوغّلوا بـين الأعراب مدفوعـين بعقلية تنهيج اللغـة وتنقيتها، مما أدى بهـم إلى توحيد لغتي النصوص القرآنيـة والنصوص الشعرية التي سبقتهـا، في الوقـت الذي نظمـوا واستخرجوا قواعـد العربية الفصحى، ونتج عن ذلك إضاعة أشياء قليلة من اللهجة الشعرية قبل الإسلامية في سبيل التوفيق بينها وبين لغة النصوص القرآنية. وما العربية الفصحى الحالية إلا لهجة ولدت من ذلك، والنصوص المضبوطـة في شكلها الحاضر لا تمثـل اللغة الشعريـة في شكلها القديم، وإنما تبتعد بعض الابتعـاد عن تلك اللهجة، بسبب ما فعله علماء النحو والصرف الذين اعتنوا بأغراض اللغة العربية وشؤونهـا، وما أدخلوه من تشذيب وتهذيب رسّخهما المشتغلون باللغة.

فتور نقل الشعر

مهما يكن مـن أمر أصل لغة نصوص الشعر القديم وصلتهـا بأسس الفصحى أو الفصيحات مـن لغات العرب في بيئاتهم الجغرافية المتعدّدة، فـلا بدّ من ملاحظة ما سمّـي «فترة الانقطاع» التـي حدثت في إقبال العرب أنفسهم على تناقل النصوص الشعرية وحفظهـا في بداية الدعوة الإسلامية، لافتـين إلى تأثير ذلك في الآثار التي تعرّضت للنسيـان -من جهة- إضافة إلى الحالة التـي سـادت في غياب المعين الـذي يفترَض أن تستمدّ منه اللغـة الفصحى فاعليتها -من جهة ثانية- بحسب التصوّر الآخر لاستمرارها.

فقـد روى ابن سـلاّم في حديثه عن المنقول الصوتي الذي وصله في سياق ما لا يمكن تأكيده لأسباب متعدّدة،[٨] فقال: «قال ابن عوف عن ابن سيرين: قال عمر بن الخطـاب: كان الشعر علم قـوم لم يكن لهم علم أصحّ منـه، فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد، وغزوا فارس والروم، ولهيت عـن الشعر وروايته. فلما كـثر الإسلام، وجاءت الفتـوح، واطمأنت العرب بالأمصـار، راجعوا رواية الشعـر، فلم يئلوا إلى ديوان مـدوّن ولا كتاب مكتوب، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقلّ ذلك وذهب عنهم أكثره».[٩]

وسواء صحّت هذه الإفادة عن عمر بن الخطاب أم لم تصحّ، فإنها تشير إلى إقرار واقع مفاده: انقطاع العرب عن التاريخ الصوتي المتداوَل للأحداث المهمّة بوساطة النصوص الشعرية، التي لم تكن مكتوبة عند ظهور الإسلام، إضافة لانصرافهم عن إنتاج تلك النصوص وعدم تداولها لمدة من الزمن دامت طوال سنين انتشار الإسلام، ثم العودة إلى المرويّات بعد استقراره؛ مما يفسح المجال واسعاً للقول بوجود مقادير غير قليلة من الترميمات التي تمّت في الذاكرة على نحو عفوي، أو بغرض سدّ الثغرات على نحو قصدي مبعثه اندثار المنقول أو عدم وجود وثيقة مكتوبة ورثها الأبناء عن الأجداد والآباء.

فابن سلاّم نفسه ذكر في آخر الإفادة السابقة أنّ العرب حفظوا «أقلّ ذلك، وذهب عنهم أكثره»، ثم ذكر على نحو صريح واضح في موضع لاحق غير بعيد: أنّ «أوَّل مَن جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حمّاد الراوية، وكان غير موثوق به. كان ينحل شعر الرجل غيره، ويزيد في الأشعار» [١٠].

وقد توفي «حمّاد بن سابور» أو «ابن ميسرة» أو «ابن أبي ليلى» الديلمي. غير العربي. الملقّب باسم «الراوية» سنة (١٥٥هـ) أي بعد زوال حقبة الخلافة الأموية كلها بحوالى ربع قرن من السنين، وإليه نُسب أوَّل جمع للقصائد السبع الطوال، المعروفة بأسماء متباينة منها «المعلقات».

ويفترَض -بحسب هذه الحكاية- أنّ نصوص الشعر المنقول عن فترة ما قبل الإسلام وأوَّل عصر إسلامي ثم العصر الأموي وعشرات سنين من العصر العباسي كانت تروى صوتياً خلال تلك السنوات المديدة، التي تعاقبت فيها الأجيال المتعدّدة، عبر بلاد مترامية الأطراف تنتشر فيها أميّة القراءة والكتابة بين الغالبية العظمى من العرب والوافدين المسلمين، ولا تتوافر فيها وسائط التدوين، فضلاً عن عدم تأسيس قواعد اللغة العربية بصورة موحّدة. إملاءً ونحواً وصرفاً ودلالةً. وعدم وضعها في الكتب التي لم تكن قد ظهرت بعد، مع وجود الحروب والنزاعات والعداوات الكثيرة التي فرّقت المسلمين شيعاً وأحزاباً. ولم يذكر أي خبر لدى مؤرخي الشعر الأوائل أنّ حمّاداً كان يكتب ما يحفظ، بغرض مراجعته أو العودة إليه بعد مرور فترات من الزمن أو للتأكّد من بعض أوضاعه أو في مناسبات معيّنة، بل إنّ الأخبار المتصلة بنقله تواطأت على امتداح ذاكرته ونيله الأعطيات والأموال مكافأة لحفظه الفريد.

نَقَلَة الشعر ليسوا عرباً

يضاف إلى ما تقدّم كلّه وجود أعداد كثيرة جدّاً -إذا قيست إلى أعداد العرب- من السكان ذوي الأصول المتعدّدة الأعراق غير العربية، الذين كان من أبرز خصائصهم التبادلية في التفاهم الصوتي أنّ اللغة العربية ليست أمّاً للسانهم المنطوق الذي يتحدثون به ويتفاهمون؛ بما يعني أن ثقافة أكثرهم قد اقتصرت على حفظ بعض نصوص من آيات قرآنية يردّدها في الصلاة وبعض الأدعية والمأثورات والتعاليم والأحاديث والأخبار، التي تكفي حكاية معانيها

وفهـم مضامينها مهما كانت اللغة التي تنقل بها إلى الأشخاص المعنيين.

وتشير أخبار مكـرّرة أخرى - وصلتنا في ما حملته كتـب الأوائل- إلى وجود أشخاص آخرين قلائل ذوي أسماء معدودة وقدرات محدودة عُرفوا بجمع نصوص الشعر العربي المختلفة وصناعتها في العصر العباسي، وليس قبله، أي بعد مضي قرن ونصف القرن من بدايـة التاريخ الهجري، ومات أوائلهم قبل ظهور صناعة الورق في بغداد (حـوالى سنة ١٧٢هـ)، أو حقبة قريبة من ذلك لا تكفي لجمع النصوص الشعرية المتناثرة جغرافياً والتي تعـود تواريخ إنتاجها لحقبة ما قبل ظهور الإسلام في منطقة الحجاز.

فذكـر أبـو عثمـان الجاحـظ ومحمد بن النديم[١١] أنه اشتهر بجمع الشعر ثلّة قليلة العدد معروفـة الأسمـاء، منهم: أبو عمـرو بن العلاء (ت: ١٥٤هـ) وخلـف بن حيان (ت: نحو ١٨٠هـ) ومحرز الأحمر (المجهول الولادة والوفاة والسيرة الشخصية) وقيل إنـه «كان شاعراً يعمل الشعر علـى لسان العرب وينحله إياهم» حسب ما يفيد ابن النديم[١٢]، فارتبط- أيضاً وجود رواة الشعر بمعرفتهم صناعته، أي قدرتهم على إنتاج نصوص شعريـة متأخّـرة زمنياً بصورة كليـة أو جزئية، ونسبتها إلى فترة متقدمـة عليها، سواء في ذلك مرحلة الإسلام المبكّرة وما سبقه وما كان لاحقاً عليه.

وأشارت بعض الأخبار إلى وجود جماعة من المعنيّـين بالنصوص الشعريـة في القرن الثالث الهجـري، فيهم: أبو عبيـدة التيمي الولاء معمر ابن المثنى، عبد الملك بن قريب الأصمعي، المفضل محمد الضبي الكوفي، إسحاق بن مرار الشيباني، ومحمد بن زياد الأعرابي، جناد بن واصل الكوفي، خلاّد بن يزيد الباهلي، وغيرهم[١٣].

والملاحظة المهمّة التي يجـب أن نشير إليها هنا -على الرغـم من حرصنا على عدم التوسّع في الموضوع- تتمثّل في عدم انحصار تأثير مسألة صناعة النصوص الشعرية ونحلها في نسب أثر أدبـي أو إبداعي أو تاريخـي لأشخاص لم يقولوه وحسب، فالجانـب الأكثر خطورة تمثّل في أنّ ما شملته مضامين هذا النوع من النصوص الشعرية من أفكار وآراء ومعتقـدات، عرفتها المجتمعات العربيـة المتنوّعـة في فترات متفاوتـة الظروف والمعطيات خلال مراحـل متفاوتة التأخّر زمنياً مـن سيرورتها الثقافية، قد نُسـب إلى أشخاص بأعيانهـم أو مجتمعات عاشوا فيها قبل فترة من الزمن محدّدة، أي قبل تاريخ الإنتاج الفعلي.

وقد أدى ذلك -زيـادة على تشويه الأحداث التاريخية وتسلسلهـا- إلى إسباغ صفات ثقافية أو معرفية متنوّعـة الموضوعات والمعطيات، غير مقصودة بذاتها أو دقيقة التحديد، إلى أشخاص من السابقين الذيـن لم يكونوا قد عرفوها حقاً. فتسبّـب ذلك في صعوبة فرز الأفكار التي سادت في الأخبار والمدوّنات العربيـة اللاّحقة، وزادت صعوبـة الوقوف علـى حقيقة أوضـاع التطوّر الثقافي في مجتمعات العرب المتعدّدة، التي لا شكّ أنها أصابت مـن التأثر والتأثير حظوظاً متفاوتة

ومتغايــرة، بسبب عوامل جغرافيــة واقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسيــة وعسكرية وكثيرة أخرى سواها.

قواعد النحو وتهذيب اللغة

يعــدّ مــا ذكره المؤرخــون عن ابتــداء وضع قواعد النحو العربــي واحداً من المشكلات التي ماتــزال تنتظر الحــلّ في تاريخ اللغــة، وخاصة الجانب المتصل بضبط الشعر المنسوب إلى الفترة التاريخيــة التــي سبقت ظهور الإســلام وكانت قريبــة بعــده. إذ يبدو نتيجــة الفحص الدقيق للمصادر والمراجع الإخبارية والبحثية المبكّرة أنّ تلــك العمليات قد أفــرزت نتائج متفاوتة الحظّ في النجــاح، وماتــزال بين أيدينــا شواهد كثيرة على وجود اختلافــات واضطرابــات تصنيفية وتأويلية مؤثرة ذات مساس مباشر بمضمون اللغة وطبيعتها.

فما وصلنا من مؤلفات يتحدث عن أن حركة تنظيــم اللغة لا تسبــق القرن الثــاني الهجري، مع كثــير إشارات إلى النقــل الشفوي قبل ذلك، وترافــق احتــكاك العرب بشعوب مــن أصحاب اللغات الأخرى، وانتماء أغلــب المشتغلين باللغة إلى غير العرب وعدم معرفة كثيرين منهم العربية قبــل ترك بلادهم والإقامــة في بعض الحواضر العربية[١٤].

ولا بدّ أن نلاحظ أنّ معنى «النحو» في الأصل هو الاتجــاه أو التوجّه، ولم يكــن يعني في اللغة. حتى بدايــة العصر الأموي على الأقلّ. وضعَ أيّ قواعــد أو ضوابط للقراءة والكتابــة. ويبدو أنّ اللفظ قــد اكتسب معنــاه الاصطلاحي بعد أن صار المتحدّثون بالعربيــة يتّجهون (أي: ينحون) إلى تطبيق آراء المعنيّين ببحوث اللغة واجتهاداتهم في صياغة الــكلام العربي، بغرضــ «الإعراب» الذي صار يعني توصيلَ فكرةٍ ما باستخدام اللغة العربية.

وهــذا ما سبّــب -في رأينا- وجــود التباس بــين كلمتــي الإعــراب والنحو حتــى اليوم في كتب اللغويين، فهم يتحدّثــون عن قواعد النحو الضابطــة للنطــق والكتابة، كمــا يتحدثون عن إعراب الكلام أي بيان موقع كل كلمة في الجملة وحركتها الفردية ودورها في تكوين المعنى العام. ولا نعــدم في كتــب النحويين وجــودَ اختلافات جذريــة في بعضــ الآراء المتصلــة باستخــدام الألفــاظ المفردة وصياغة التعابــير أو العبارات، من ما اتخذ صور «مدارس واتجاهات» في النحو وغيره من مطالب اللغة.

وقــد عرض «أحمد أمين» لتفصيل الروايات والأخبــار التــي وصلتنا عن أوّل مَــن وضع نحو اللغــة العربية، والكيفيات التي بدأ في ظلّها هذا العمل الكبير، فرأى فيها غير قليل من التجاوزات المنطقية والظنون غير المنهجية، وصرّح قائلاً: «كل هذا حديث خرافــة، فطبيعة زمن علي (بن أبي طالب) وأبي الأسود (الدؤلي) تأبى هذه التعاريف والتقاسيم الفلسفيــة. والعلم الذي ورد إلينا من هــذا العصر في كل فرع، علمٌ يتناسب مع الفطرة وليس فيه تعريف ولا تقسيم. إنما هو تفسير آية، أو جمــع لأحاديث، ليس فيها تبويب ولا ترتيب..

ويشهد لهذا الرواياتُ الكثيرة المتناقضة في سبب الوضع، ومن حسن الحظّ أنّ هذا ليس محلّ اتفاق بين العلماء. فمنهم من قال إنّ واضع النحو عبد الرحمن بن هرمز في خلافة هشام، ومنهم من قال إنه نصر بن عاصم؛ والقائلون بهذا -من غير شكّ- ينكرون نسبته إلى علي وأبي الأسود»[١٥].

وأكد أستاذ النحو العربي «سعيد الأفغاني» هذا الرأي، وأضاف بلهجة استنكارية ملاحظة مهمّة تقول: «لستُ أدري، هل أبقت الحروب والفتن لعلي وقتاً يفرغ فيه للتأليف في العلوم وتنقيحها واختراعها»[١٦]. ولا شكّ أن هذا وغيره يردّ على تلك الظنون المتصلة بمسألة الفترة المبكّرة في وضع قواعد النحو العربي، على غرار ما سنذكر أكثره شيوعاً.

فقد أخبر أبو الطيب «عبد الواحد بن علي» اللغوي (ت: ٣٥١هـ) بعد مرور حوالى مئتين وثمانين سنة من وفاة «ظالم بن عمرو» الكناني، المعروف بأبي الأسود الدؤلي أنّ المرحلة الأولى في وضع «قواعد النحو» كانت تتلخّص في جعل «حروف» للناس بيّن بها أبو الأسود مواضع «الرفع والنصب والجرّ» للحفاظ على معاني النصوص القرآنية[١٧].

وهذا كلام يعارضه ما حكاه «حسن بن عبد الله» السيرافي (ت: ٣٦٨هـ) من أنّ أبا الأسود «وضع باب الفاعل والمفعول، ولم يزد عليه» وأنه «وضع كتاباً» أي كتب شيئاً غير مسبوق في مجاله، لما سمع ابنته تتعجّب من حُسن السماء فتلحن[١٨] بقولها: ما أحسنُ السماء، بصيغة الاستفهام بدل صيغة التعجّب: ما أحسنَ السماءَ!.

وأتى «محمد مرتضى» الزبيدي (ت: ٣٧٩هـ) بزيادة من عنده لتأكيد أن البحث في المعاني يسبق وضع الحركات التي تدلّ على وظائف محدّدة، فزعم أنّ أبا الأسود قد وضع «باب المضاف». وزاد في مكان آخر أنه وضع «باب التعجّب» ثم «غيرها من الأبواب»، ولم ينسَ أن يزعم زيادة حروف «الجزم» على حد زعمه وضع «حروف الرفع والنصب والجر». وزادت أعداد الأبواب المنسوب وضعها لأبي الأسود بعد وفاته، دون أخبار موثوقة، فذكرت أبواب: تقسيم الكلام والعطف والنعت والاستفهام[١٩] وغيرها من أمور تستحق الإفراد، على نحو ما ذكره الزبيدي والقفطي.

ولم يصلنا أي بحث أو كتاب يصف الانتقال من «نقط الإعراب» إلى «نقط الإعجام» أي الانتقال من استخدام «النقطة» للدلالة على حركة الضمّ والفتح والجر، إلى استخدامها للتمييز بين أحرف متشابهة الكتابة كما في الراء والزاء، والباء والتاء والثاء، وغيرها. إذ بقي هذا الانتقال غامضاً، ولم يتضح في سير المشاهير والأعلام التي احتفى مصنفوها بأقلّ من هذا الإنجاز بكثير[٢٠].

ولم يذكر النحاة الذين كانوا أحياء في العقد الثالث من القرن الثاني الهجري، وحتى بعد انتهاء الدولة الأموية وجودَ بحوث تطبيقية مرموقة في النحو، رغم أن العمل في لوازم نقط الإعجام قد قرّب قواعد الكتابة العربية من اللغتين السريانية

والكلدانية، اللتين كانتا منتشرتين في أنحاء البلاد السورية والعراقية وليس في مكة أو المدينة.

و«أحمد بن فارس» القزويني (ت: ٣٩٥هـ) الذي تعلّم اللغة العربية بوسائط بدائية في همدان والريّ هاجم سابقيه الذين قالوا بمراحل وضع القواعد اللغوية وأوزان العروض في الشعر، قائلاً: «إنّ هذين العلمين قد كانا قديماً، وأتت عليهما الأيام وقلاّ بين أيدي الناس، ثم جدّدهما هذان الإمامان»[٢١]، أبو الأسود الدؤلي والخليل ابن أحمد الفراهيدي.

ويبدو من الأخبار التي وصلتنا أنه قد اتضح التمذهب في النحو من خلال وضوح «المنهج الكوفي» في التركيز على السماع والتعليل والقياس، ولاسيما بعد ظهور «عيسى بن عمر» مولى خالد ابن الوليد نزيل بني ثقيف (ت: ١٤٩هـ) وأبي عمرو «زبّان بن العلاء» التميمي (ت: ١٥٤هـ)، اللذين كانت لهما قراءات مشهورة لبعض الآيات القرآنية من مما يحتجّ به باحثون.

وكان هذا هو الشغل الشاغل لنحاة تلك الأيام بالدرجة الأولى، بعيداً عن كثير من الوظائف الإنسانية المجتمعية الأخرى للغة. فقد روى السيرافي عن «علي بن محمد» أنه قال: «قال أبي: قلت له (لعيسى بن عمر) يوماً: أخبرني عن هذا الذي وضعتَ، يدخل فيه كلام العرب كلّه؟ قال: لا. قلتُ: فمن تكلّم بخلافك واحتذى ما كانت تتكلم به العربُ أتراه مخطئاً؟ قال: لا. قلتُ: فما ينفع كتابُك؟»[٢٢].

كما جاء عند الزبيدي أنّ ابن نوفل قال: «سمعتُ أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء: أخبرني عمّا وضعتَ ممّا سميتَه عربيةً، أيدخل فيه كلام العرب كلّه؟ فقال: لا. فقلت: كيف تصنع في ما خالفتكَ فيه العرب وهم حجّة؟ قال: أعمل على الأكثر، وأسمّي ما خالفني لغات»[٢٣].

ويُعدّ من نحويي تلك الفترة أبو سفيان بن العلاء (ت: ١٦٥هـ) -أخو أبي عمرو المذكور قبل- الذي كان من أصحاب الغريب والرواة. ومنهم الأخفش الأكبر أبو الخطاب عبد الحميد ابن عبد المجيد (ت: ١٧٧هـ) الذي أخذ عنه يونس ابن حبيب وسيبويه وغيرهما، وقيل إنه أول مَن فسّر الشعر تحت كلّ بيت بعد أن كانوا يفسّرون القصيدة كلها بعد الفراغ منها، وله ألفاظ انفرد بنقلها من لغة العرب لم تُروَ عن أحد غيره.

وتقدم النحو إلى الأمام وازدادت مطالبه وأبواب الاحتجاج فيه، بعد أن نُقلت كتب «المنطق الصوري» من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية، وعرف النحاة قواعد «القياس» وغير قليل من المحاكمات الصورية ذات الضوابط القائمة على «التعريف» وما يمكن أن تؤدي إليه من «نتائج» هي بمثابة تسويغات أوليّة بعيدة عن الواقع أو «مسلّمات» تضمن عدم «التناقض» الشكلي[٢٤].

وتجسّد هذا الاتجاه بصورة أكثر عمقاً على يدي الخليل بن أحمد الفراهيدي من عرب الأزد (ت: ١٧٠هـ) ويونس بن حبيب مولى بني ضبّة (ت: ١٨٢هـ) حسب ما نراه في أخبار المناقشات والمساجلات بين أعلام النحويين، وخاصة التي تظهر أنّ هذين الرجلين قد سارا مع متطلّبات

الموجة المتصاعدة من جهود «التعليل» و«القياس» الطاغيــة في تلك الفترة من الحياة الثقافية على غير صعيد. وقد نقل سيبويه جوانب من ذلك عن أستاذيه هذيــن، في طوايا «الكتاب» الذي وضعه في أغراض اللغة.

ونُسبت أخبار كثــيرة متناثرة في الكتب التي ظهــرت في القرن الثالث الهجــري وما بعده إلى أشخاص بأسماء أو من دون تحديد، أنهم تحدثوا عن مــا شاع مع الخليــل ويونس مــن مقارنات كثيرة في مرويات العرب، وأنهما «تمحّلا للكلام» أحياناً ما لم يخطر على بال المتكلّم الفصيح قطّ، وذهبا في التأويل والتفسير مذاهب شتى لتسويغ المرويات، فقدّرا في الكلام أفعالاً مضمَرة وحروفاً محذوفــة وعطفاً على معطــوف مفترَض، وغير هذه من أمور عُرفت في مــا بعد باسم «العوامل أو المعمولات» التي قيل بضرورة الخضوع لها في الكتابة والكلام.

وارتبط بفرض وجود العوامل ما أُطلق عليه فيما بعدُ اسم «عِلل النحو» التي سمّى «الزجّاجي» بعضها «العلــل التعليمية» بعد أن وصفها بقوله: «علل النحو.. على ثلاثة أضــرب: علل تعليمية، وعلل قياسية، وعلل جدلية نظرية. فأما التعليمية فهي التي يتوصل بها إلى تعلّم كلام العرب، لأنّا لم نسمع نحن ولا غيرنا كل كلامها منها لفظاً، وإنما سمعنا بعضاً فقسنا عليــه نظيره. مثال ذلك أنّا لما سمعنا: قام زيــد فهو قائم، وركب فهو راكب؛ عرفنــا اسم الفاعل فقلنا: ذهب فهو ذاهب وأكل فهــو آكل ومــا أشبه ذلك. فهذا كثــير جدّاً، وفي الإيمــاء إليه كفاية لمن نظــر في هذا العلم. فمن هذا النوع من العلل قولنا: إنّ زيداً قائم، إن قيل: بمَ نصبتُــم زيداً؟ قلنا: بــأنّ، لأنها تنصب الاسم وترفع الخبر، لأنّا كذلك عُلّمناه ونعلّمه. وكذلك: قــام زيدٌ، إن قيل: لمَ رفعتم زيداً؟ قلنا: لأنه فاعل اشتغل فعله بــه فرفعه. فهذا وما أشبهه من نوع التعليم، وبه ضُبط كلام العرب»[٢٥].

ولا يحتاج الباحث المختصّ إلى كثير تفكير لكي يدرك أنّ البناء «التصوّري» الواضح في هذا التسويغ وغيره لتفكير النحاة التقليديين وأتباعهم قد بقي كما هــو، على مرّ السنــين بل القرون. وما زاد -في الواقع- هو افتراضهم وجود الأمور والأسبــاب، بما أدى إلى تراكــم الأبنية النظرية الصوريــة التي زعموا أنها سبب الوقائع اللغوية، تحت شعارات وذرائع لا تدخل -جميعاً- في إطار البحث اللغوي التخصّصي.

وكانوا بهذا يعملــون على قلب ترتيب وجود اللغة نفسه؛ وهو أمر دفع «ابن مضاء» القرطبي أحمد بن عبد الرحمــن (ت: ٥٩٢هـ) الذي كان أحــد المشهورين في الاشتغــال باللغة العربية في الأندلــس لوضع كتابه «الــردّ على النحاة» الذي هاجــم فيه جهــود المشتغلين باللغــة في المشرق العربي، وطالب بضرورة «إلغاء التعليل» في النحو، والأخذ بالظواهر اللفظية دون غيرها.

وتنبّــه «عبــد الرحمن بن خلــدون» لجانب مهمّ من هــذه الظاهرة، ذات الصلة المباشرة بما نسميه «سوسيولوجية اللغة» فقال: «لا تلتفتنّ إلى خرفشــة النحاة، أهل صناعة الإعراب، القاصرة

مداركهم عن التحقيق، حيث يزعمون أنّ البلاغة لهذا العهد قــد ذهبت، وأن اللسان العربي فسد اعتباراً بما وقع في أواخر الكلم من فساد الإعراب الــذي يتدارسون قوانينه.. وإلا فنحن نجد اليوم الكثير مــن ألفاظ العــرب لم تــزل موضوعاتها الأولى. والتعبــير عــن المقاصد، والتعــاون فيه، بتفــاوت الإبانة، موجود في كلامهم لهذا العهد.. ولم يفقد مــن أحوال اللسان المــدوّن إلا حركات الإعراب في أواخر الكلم.. ولعلّنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهــد، واستقرينا أحكامه، نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالاتها بأمور أخرى موجــودة فيه تكون بهــا قوانين تخصّها، ولعلّها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مُضر»[٢٦].

فالأصــل الصميمي -الذي أدركه ابن مضاء وابــن خلدون وكثير من الذيــن سبقوهما بمئات السنين في حضارات أخــرى، وتؤكده الدراسات الحديثة التي نؤيّدها- هــو أنّ اللغة وجدت بما هي ظواهر متداولة في نقل الفكر أولاً، ثم أطلقت التسميــات على أجــزاء الــكلام وأدواته لاحقاً، كعمل يرمي إلى تنظيم وضع اللغة وتعليمها.

وهــذا من ما يظهر أنّ كثــيراً من التسميات والتصنيفــات التي أطلقها النحــاة، فأثقلوا بها اللغة وجمّدوها داخــل تعريفات وأشكال مقيّدة، ليســت مسائل حاسمة فرضتهــا طبيعة اللغة أو اقتضاهــا تعلّمها. ونرى أنــه أحد الحوافز التي يجــب أن تدعو الباحثين المعاصرين إلى التخلّص من أثواب بالية جُعــل بعضها أردية للغة العرب، وأحاطتها بمزاعــم أدت لتجميدها وشلّ قدرتها على القيــام باستخدامها بمثابــة «أداة» متاحة للعرب والمستعربــين في التعبير الشفوي والكتابة ضمن أفضل الشروط العملية.

فهــذا واحــد من الإجــراءات التــي تفسح في المجال لجعــل اللغة أكثر طواعيــة في التعلّم والتمكّن من الاستعمال، وأكثر ارتباطاً بالفاعلية الفكريــة والأوضاع النفسية لــدى مستخدميها، وبالتــالي تحقق قدراً أكبر من مــا دعاه الأجداد باســم «السليقة اللغوية» التي كانت تشير -في ما تشــير- إلى مجرى اللغة التلقائي مع التنفّس، بما هي نظام لتقطيع الأصوات.

الهوامش والإحالات

١-٢ انظر عرض الرأيين بالتفصيل في بحثي:

The Old Arabic Language and Literature, pp.17.

٣- سلسلــة كتــاب الهلال، السنة ٢٦، أكتوبر ١٩١٧م، (ص٤٧ وما بعدها)، نص منقول عن «جواد علي» في كتاب: الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة.

٤- انظر بحثي المشار إليه، ص٣١.

٥- كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج١، ص٤٢. وانظر للمقاربة بحث والتر أونج:

The Presence of the World.

٦- ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ص٨٦.
٧- المصدر نفسه، ص٨٧ وما بعدها.
٨- ابن سلاّم: طبقات فحول الشعراء، ص١٠.
٩- سبب قولنا باحتمال أن تكون هذه الإفادة غير صحيحة يتصل أولاً بأنّ سندها ضعيف حسب تقويم أهل الرواية، وثانياً ما يظهر في محتواها من تبسيط واضح لتسلسل حوادث التاريخ ومسألة الاستقرار في الأمصار. انظر في «معايير تقويم الحديث» كتابي: الأحاديث النبوية والصحابية، ص٨٤ وما بعدها.
١٠- طبقات فحول الشعراء لابن سلاّم، ص١٤. وانظر: ابن النديم، الفهرست ص١٠٨.
١١- الجاحظ: البيان والتبيين، ج١ ص٣٢١. ابن النديم: الفهرست، ص٤٨.
١٢- الفهرست، ص٨٠. وخلف بن حيان هو: أبو محرز، المعروف بالأحمر. انظر: الأعلام للزركلي، ج٢، ص٣١٠.
١٣- المصدر نفسه: ص١٠٨، ١٤١. ابن سلاّم: طبقات الشعراء.
١٤- انظر تفصيلات وأمثلة مقارنة في كتابي: إصلاح الكتابة العربية، ص٧٣ وما بعدها.
١٥- أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج١ ص٢٨٥.
١٦- سعيد الأفغاني: في أصول النحو، حاشية ص١٦٤.
١٧- انظر: مراتب النحويين لأبي الطيب، ص٦ وما بعدها.
١٨- انظر: طبقات النحويين البصريين للسيرافي، ص١٥ وما بعدها.
١٩- انظر: طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ص٢١ وما بعدها. إنباه الرواة إلى أنباه النحاة للقفطي، ص٥ وما بعدها.
٢٠- انظر أمثلة لدى «اليماني» في: إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين.
٢١- الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس، ص٣٨.
٢٢- أخبار النحويين البصريين للسيرافي، ص٣٣.
٢٣- طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ص٣٩.
٢٤- انظر حول قواعد المنطق وعمل المفكرين العرب والمسلمين فيه كتاب عبد الرحمن بدوي: المنطق الصوري والرياضي، ص١٨ ومابعدها.
٢٥- الإيضاح في علل النحو للزجاجي، ص٦٤.
٢٦- مقدمة ابن خلدون، ص٥٥٦ وتاليتها.

مصادر البحث ومراجعه

١- ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة. المكتبة التجارية الكبرى، طبعة القاهرة. وكذا في الجزء الأول من كتابه «العبر في ديوان المبتدأ والخبر..» المطبوع بعنوان: تاريخ ابن خلدون، دار البيان، بيروت.
٢- ابن سلاّم، محمد: طبقات فحول الشعراء. دار المعارف بمصر.
٣- ابن فارس، أحمد: الصاحبي في فقه اللغة. مؤسسة بدران، بيروت ١٩٦٣م.
٤- ابن النديم، محمد: الفهرست. طبعة مكتبة الخياط، بيروت.

٥- أبو الطيب اللغوي، عبد الواحد بن علي: مراتب النحويين. حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٤م.
٦- الأفغاني، سعيد: في أصول النحو. مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٤م.
٧- أمين، أحمد: ضحى الإسلام. دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٩م.
٨- بدوي، عبد الرحمن: المنطق الصوري والرياضي. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٣م.
٩- بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي. نقله إلى العربية عبد الحليم النجار وزملاؤه، دار المعارف بمصر.
١٠- بلاشير، ريجيس: تاريخ الأدب العربي. ترجمه إبراهيم الكيلاني، دمشق ١٩٥٦م.
١١- الجاحظ، عمرو بن بحر: البيان والتبيين. حققه عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
١٢- الزبيدي، محمد: طبقات النحويين واللغويين. حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٧٣م.
١٣- الزجاجي، عبد الرحمن: الإيضاح في علل النحو. دار النفائس، بيروت ١٩٧٣م.
١٤- القفطي، علي: إنباه الرواة إلى أنباه النحاة. حققه أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٠م.
١٥- الزركلي، خير الدين: الأعلام. دار العلم للملايين، بيروت.
١٦- السيرافي، حسن بن عبد الله: أخبار النحويين البصريين. نشرة فربنس كرنكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٦م.
١٧- شرف، محمد ياسر: الأحاديث النبوية والصحابية. مركز الكتاب العربي، لندن ٢٠٠٤م.
١٨- شرف، محمد ياسر: إصلاح الكتابة العربية. دار المتنبي للطباعة والنشر، أبوظبي ٢٠٠٣م.
١٩- كتاب الهلال: الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة. السنة السادسة والعشرون، أكتوبر ١٩١٧م.
٢٠- اليماني، عبد الباقي: إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين. حققه عبد المجيد دياب، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض ١٩٨٦م.
21- Ong, Walter: The Presence of the World. New Haven and London, Yale University Press, 1967.
22- Sharaf, M. Yasser: Old Arabic Language and Literature. Universal Academy Press Centre, London, 1989.